سعاده نهضويّاً رائياً مولوداً في الأوّل من آذار... منارة هادية تضيء دروب الراهن والآتي

«القتال ليس الدين... والجهاد يغري العرب بالغزو والسلب ويشوّقهم بصورة الجنّة»

«سيرى الشعب اللبنانيّ أنّ مسألة إسقاط وزارة ورفع أخرى لا تحلّ مشاكله»

جورج كعدي

مِنْ أين يأتينا قبس من نور وسط ظلمات الموت والإرهاب والدمار والخَوف على مصير الأمّة، إنْ لم يكن من فكر النهضويّ والرائي الكبير أنطون سعاده، الذي نستحضر فكره اليوم، وكلّ يوم، لنلقى فيه الجواب والهداية والأمل والعزاء، فهو يجيبنا منذ أكثر من سبعة عقود عن أسئلة تؤرّقنا راهناً، تقلقنا وتدمي قلوبنا، حول الدين والدولة و«الجهاد» والعصبيّة الطائفية والضعف الذي يصيب جسد الأمّة بفعل التفسّخ والتشرذم وتسلّل الأعداء إلى الجسم المريض بآفات شتّى.

الشام متّشحة بالسواد، لبنان في تخبّط مستمرّ وطعم الموت عالق في الحلق، العراق مدمّى وجريح، فلسطين تنام وتصحو على احتلال وحشيّ رابض فوق الصدور، والبندقية العربيّة موجّهة إلى صدر الأمّة السوريّة بدلاً من صدر العدوّ «الإسرائيليّ»! كل شيء يبدو إلى انهيار تامّ، إلى مآل معتم، كأنّما لا رجاء لهذه الأمّة بأن تتّحد وتنفض عنها غبار التخلّف والطائفية، لتنهض على أساس قوميّ يزوّدها القوّة والمنعة والرفاه، فتقدر على التصدّي لأعدائها الطامعين، من الشرق والغرب، من قواعد الاستعمار أو من صحراء العُرْبة، فحسّادها كثر، والطامعون بموقعها وخصبها ومناخها وثرواتها يعتدون أو يتربّصون أو يتآمرون أو يتواطأون!

في الأوّل من آذار، التاريخ المجيد الذي شهد ولادة رجل النهضة القومية الأعظم، لا نرى أفضل وأجدى وأعمق من إعادة قراءة فكر سعاده مراراً وتكراراً، وإعادة الاستشهاد به في الملمّات الكبرى، فهو المنارة التي تنير لنا الدرب القويم، وتعطينا الجواب الشافي، وتمدّنا بالأمل، وتجدّد في عروقنا دم الحياة، وتؤكّد لنا على الثوابت التي لا تلغيها مراحل عابرة وطارئة تشهدها الأمّة المتراكمة الحضارات، الأعرق والأوفر إبداعاً في تاريخ البشرية.

خلت نفسي في هذه الذكرى أسأل النهضويّ الرائي سعاده في هموم الراهن وقضايا الساعة، خاصة حول الطائفية والدين والدولة، ويجيبني هو بما استشرفه برؤياه الفذّة منذ الأربعينات من القرن الفائت، وبما لا يزال صالحاً لساعتنا الراهنة، ما يؤكد استثنائية الرؤية وثبات المبادئ.

أسأل سعاده بدءاً عن القضية الدينيّة، خاصة بعنوانها الإسلاميّ الراهن في ظلّ الوهّابيّة الزاحفة إلى أرض الشام من بلاد العُربة وآل سعود لتعيث فيها قتلاً ودماراً، فيردّني سعاده إلى أصل هذه المعضلة قائلاً: «(...) الحقيقة أنّ الرسالة القرآنية تقسم إلى قسمين: القسم الأوّل وهو المكي السابق للهجرة وفيه الآيات المكية المتجهة اتجاهاً روحيّاً، على قدر ما تسمح به عقلية البيئة المحدودة العلوم والمعارف والاختبارات والأفكار والتصوّرات. والقسم الثاني هو المدني المشتمل على الآيات المدنية واتجاهه نحو شؤون أولويات الاجتماع وضروريات بداءة إنشاء نظام اجتماعيّ عام يشمل جميع العرب، ويحل محل العادات والعرف المقتصرة على القبائل وعلى حالات قليلة تقوم عليها الصلات بين القبائل التي كانت كل قبيلة منها كأنّها أمّة ودولة قائمة بنفسها، لا يجمع بينها غير عادة أو فريضة الحجّ إلى الكعبة والاصطلاح على ترك الغزو والثأر في شهر معيّن من السنة.

وفي هذا القسم يظهر عاملان رئيسيان هما: التشريع والسياسة. أمّا التشريع فلإقامة نظام عام يلغي خصوصيات القبائل ويوحّد العرب. وأمّا السياسة فلجعل نجاح الرسالة ونظامها ممكناً. وهذا العامل الأخير يظهر في أمر الجهاد الذي يُغري العرب بالغزو والسلب، وقد ظهر تأثير هذه الناحية في يوم بدر ويوم أُحُد، وفي تشويق العرب بصورة الجنّة المادية وفي التساهل في شؤون حياتهم، خصوصاً في النساء وتعدّد الزوجات، مراعاة لشهوات الصحراء الحادّة ولاقتصار شؤون حياة العرب على الغزو والسبي والسلب، ووقوف حياتهم الفنية والروحية على الفرس والرمح والمرأة. والمرأة أو أنوثتها كانت أقوى عامل في نفسية العربي ولذلك اعتبر القرآن هذه الناحية مع ناحية الصور المادية للجنّة حتى في الآيات المكيّة كما في قوله: «الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين. ادخلوا الجنّة أنتم وأزواجكم تُحبَرون. يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين وأنتم فيها خالدون. وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون. لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون» (آيات متتالية من سورة الزخرف المكّية) وقوله: «إنّ المتّقين في مقام أمين. في جنات وعيون. يلبسون من سندس واستبرق متقابلين. كذلك زوّجناهم بحور عين. يدعون فيها بكل فاكهة آمنين. لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم» (سورة الدخان مكّية) (...)».

لكن هل أجاز الله للمسلم أن «يجاهد» ويقتل باسم الدين من دون تحديد واضح لهذا الأمر؟ يجيبني سعاده بثقة العارف المتفحّص عميقاً في الآيات القرآنية: «(...) لما كان الأمر بالقتال هو لإقامة الدين وليس لنقضه، فإنّ من الكفر بالله والهدم للدين الصحيح القول إنّ آيات القتال لاستعلاء الملّة المحمدية أو لدفع الشرّ عنها قد نسخت آيات الدين وحلّت محلّها. فالقتال فُرض لإقامة آيات الدين، لا لمجرّد القتال أو لحبّ القتال ولذلك قالت الآية: «ولا تعتدوا إنّ الله لا يحبّ المعتدين» (سورة البقرة).

وقد قلنا في سياق ما تقدّم من هذا البحث إنّ الآيات الدولية في الرسالة المحمدية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحوادث الجارية. وهذه الحقيقة يجب أن تظلّ نصب أعيننا في كل درس صحيح لنصوص الإسلام المحمدي كدولة. ولهذه الحقيقة تخضع آيات القتال. فقد استنزل محمد آيات القتال لأنّه وجد من بادأ المسلمين بالقتال واضطهدهم. فأصبح القتال مربوطاً بشرطية وجود من يطلبون مقاتلة المؤمنين من المشركين.

أمّا الآيات التي قلنا إنها تقفو أوّل آية أمرت بالقتال فهي هذه: «واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشدّ من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين». وهذه الآيات توضح جيداً أن القتال كان دفاعياً، وليس هجومياً، وضرورة قضت بها عداوة المشركين. وقوله: «الذين يقاتلونكم» يعني أعداء الدين الذين يقصدون إبطاله ومقاتلة المؤمنين حتى ولو لم يباشروا القتال رأساً. ذلك لأن عداوتهم واضطهادهم المؤمنين ثابتان. وقد جعل القرآن الاضطهاد أعظم من القتال: «الفتنة أعظم من القتل» (سورة البقرة رقم 2 الآية 217). «الفتنة أشدّ من القتل» (سورة البقرة رقم 2 الآية 191).

والفتنة هنا بمعنى المحنة، كالإخراج من الوطن. ولذلك قال: «وأخرجوهم من حيث أخرجوكم» (سورة البقرة). وأيّد غرض القتال الذي أوضحناه بقوله: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله» (سورة البقرة) أي لإزالة الاضطهاد ومنع العداوة المؤذية ولإقامة دين الله والقضاء على عبادة الأوثان. فمتى صار الدين لله لم تبقَ حاجة إلى القتال الدينيّ وصار يجب العودة إلى الفكرة الدينية الصافية الموضحة في القسم المكي: «يا أيّها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد» (سورة فاطر) «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين» (سورة القصص)، فهنا الدين. أما القتال فليس الدين بل ضرورة لإقامة الدين أوجبتها حالة البيئة.

وتأييد القرآن هذه النظرة هو تأييد جازم متكرّر. فقال «لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله...» (سورة البقرة) أي إن القصد من القتال ليس الإكراه بل دفع الفتنة والعدوان (...)».

أقول للرائي سعاده إنّ راهننا يشهد إعادة خلط قويّ بين مفهومي الدولة والدين، وهذا ما لطالما عذبه واحتلّ حيّزاً واسعاً من اشتغاله الفكريّ والعقيديّ القوميّ، فيجيبني: «في الدولة التي لا فصل بينها وبين الدين، نجد أن الحكم هو بالنيابة عن الله، لا عن الشعب. وحيث خفّ نفوذ الدين في الدولة عن هذا الغلو نجد السلطات الدينية تحاول دائماً أن تظلّ سلطات مدنية ضمن الدولة.

الدولة الدينية، التيوكراطية، منافية للمبادئ القومية، لأنّها تقول بسيطرة المؤسسة الدينية على مجموع المؤمنين كمزاعم البابوية والخلافة، فالبابا هو أمير المؤمنين أينما وجدوا وكذلك الخليفة. ليس في الدين أمة ومصالح وشعوب، بل مجموع من المؤمنين تسيطر عليه مؤسسة دينية متمركزة. ومن هذه الوجهة نرى الدين شيئاً دنيوياً، سياسياً، إدارياً تحتكره المؤسسة الدينية المقدسة. هذه هي الوجهة الدنيا من الدين. هي الوجهة التي كان الدين ولا يزال يصلح لها حين كان الإنسان لا يزال في طور بربريته أو قريباً منها أمّا في عصرنا الثقافي فإنّه لم يعد يصلح.

هذه هي الوجهة التي يحاربها الحزب السوري القومي الاجتماعي لا الأفكار الدينية الفلسفية أو اللاهوتية، المتعلقة بأسرار النفس والخلود والخالق وما وراء المادة.

إنّ فكرة الجامعة الدينية السياسية منافية للقومية عموماً وللقومية السورية خصوصاً، فتمسّك السوريين المسيحيين بالجامعة الدينية يجعل منهم مجموعاً ذا مصلحة متضاربة مع مصالح مجاميع دينية أخرى ضمن الوطن ويعرّض مصالحهم للذوبان في مصالح الأقوام التي تربطهم بها رابطة الدين. وكذلك تشبّث السوريين المحمديين بالجامعة الدينية يعرّض مصالحهم للتضارب مع مصالح أبناء وطنهم الذين هم من غير دينهم وللتلاشي في مصالح الجامعة الكبرى، المعرّضة سياسياً، لتقلّبات غلبة العصبيات، كما تلاشت في العهد العباسي والعهد التركي. ليس من نتيجة القول بالجامعة الدينية سوى تفكك الوحدة القومية والانخذال في ميدان الحياة القومية.

القومية لا تتأسّس على الدين، ولا تتأسّس عليه الدول القومية. لذلك نرى أن أكبر جامعتين في العالم، المسيحية والمحمدية، لم تنجحا بصفة كونهما جامعتين مدنيتين سياسيتين، كما نجحتا بصفة كونهما جامعتين روحيتين ثقافيتين. إنّ الجامعة الدينية الروحية لا خطر منها ولا خوف عليها. أمّا الجامعة الدينية، المدنية والسياسية، فتجلب خطراً كبيراً على الأمم والقوميات ومصالح الشعوب، ولنا في العد التركي الأخير (العثماني) أكبر دليل على ذلك (...)».

ما عساه رأي الزعيم القوميّ النهضويّ في الحال اللبنانية التي تراوح مكانها منذ عقود طويلة، وما سرّ هذا المرض المزمن الذي لا علاج له ولا شفاء؟ يجيب الزعيم سعاده: «لا أدري ما هي الميزة السياسية في الإسلام والمسلمين حتى تصبح رئاسة الوزارة وقفاً عليهم، ولا ما هي الميزة المدنية السياسية في المسيحية والمسيحيين لتصبح رئاسة الجمهورية ورئاسة المجلس النيابي وقفاً عليهم. ولكنني أدري أن تعيين المقدرة الأهلية للسياسة والحكم بالدين هو ضرب من إحلال الدين محلّ القومية وسياسة الدولة، وإنّ هذا الأسلوب هو من أسوأ أساليب الحكم وتمثيل إرادة الشعب ومؤهلاته. وإنه أصلح الأساليب لإبقاء عقلية الشعب مفسخة، متناقضة، خالية من فهم الاتجاه القومي الصحيح والعمل بسياسة قومية صحيحة تخدم مصالح الشعب.

أليس من باب السخافة في هذا العصر أن يتقرّر مصير دولة بتحديد الإمكانيات والمؤهلات في اللون الديني الذي يجب أن يكون لرئيس وزرائها ومدير دفة سياستها؟

(...) سيرى الشعب اللبناني أن مسألة إسقاط وزارة ورفع أخرى لا تحلّ مشاكله ولا توجد السياسة الصحيحة التي تخدم مصالحه (...) إن الشعب اللبناني محتاجٌ، ليس فقط لتغيير وزارات، بل لتغيير كلّ الحالة التمثيلية الإدارية من أساسها. فكل تغيير لا يكون في الأساس في المبادئ والأشخاص لا يعطي غير النتائج التي يئنّ الشعب منها.

إنّ سياسة «يجب أن يكون ابن عمّي في المجلس، لأنّي أنتفع من وجوده بتوظيف أو بتسهيل مصالح نفعية» هي سياسة تؤدّي إلى ترك مجموع مصالح الشعب الرئيسية، التي هي مصدر ثروته العامة وإمكانيات تقدمه وارتقائه، سبيل بعض المنافع العارضة الزائلة.

الحكومة تزول والحكومة التي ستحلّ محلّها تتألّف من أعضاء مجلس هذه الحكومة الزائلة. فالحالة ستبقى كما هي في الأساس.

وسواء أبقيت الوزارة أم سقطت فواجب الشعب تجاه حياته ومصالحه يقضي عليه أن يشيح بوجهه عن الشعوذات السياسية والألاعيب البهلوانية، التي كانت تستهوي أبصاره فيترك قيام الوزارة وسقوط الوزارة ومسألة المسلم والمسيحي ويتجه بكليته نحو الحياة القومية الصحيحة وتأسيس الحكم عليها».

ختاماً، أخرج على مسألتي الدين والسياسة لأسأل الكبير سعاده حول نظرته إلى الأدب، فيجيبني من المنظار القوميّ السوريّ قائلاً: «(...) إن الأدب الذي له قيمة في حياة الأمّة، وفي العالم، هو الأدب الذي يُعنى بقضايا الفكر والشعور الكبرى، في نظرة إلى الحياة والكون والفن عالية أصلية، ممتازة، لها خصائص شخصيتها.

فإذا نشأت هذه النظرة الجديدة إلى الحياة والكون والفن أوجدت فهماً جديداً للقضايا الإنسانية كقضية الفرد والمجتمع وقضية الحرية وقضية الواجب وقضية النظام وقضية القوّة وقضيّة الحق وغيرها. وبعض هذه القضايا يكون قديماً فيتجدّد بحصول النظرة الجديدة إلى الحياة وبعضها ينشأ بنشوء هذه النظرة. فالحرية، مثلاً، كانت تُفهم قبل النظرة الجديدة إلى الحياة في أشكال واعتقادات لا وضوح ولا صلاح لها في النظرة الجديدة. فلمّا جاءت النظرة الجديدة إلى الحياة والكون والفن، التي نشأت بسببها الحركة السورية القومية الاجتماعية، وقرنت الحرية بالواجب والنظام والقوة، وفصّلت الحرية ضمن المجتمع وتجاه المجتمعات الأخرى هذا التفصيل الواضح، الظاهر في تعاليمها، نشأت قضية جديدة للحرية ذات عناصر جديدة بينها فهم جديد يتناول أشكال الحياة كما تراها النهضة القومية الاجتماعية، وفعل الحرية وشأنها ضمن هذه الأشكال. والحب كان قضية شهوات جسدية ملتهبة لها شكل مادي يظهر في العيون الرامية سهاماً وفي خمر الرضاب وفي ارتجاف الضلاع وتثني القدود، فصار قضية جمال الحياة كله واشتراك النفوس في هذا الجمال. عرض عليّ مرة سجّل أمثال وأقوال فرأيت فيه قولاً مفاده أنّ الصداقة أجمل ما في الحياة، فكتبت في صفحة منه: «الصداقة هي تعزية الحياة، أمّا الحبّ فهو الدافع نحو المثال الأعلى».

ندوة حول مجموعة عماد المنذر «من نحن»

الدبس: الشعر في مرتفعاته يمثّل روح الأمّة

الدبس ورياشي والمنذر في الندوة (أكرم عبد الخالق)

بدعوة من مؤسسة رعاية أُسر الشهداء وذوي الحاجات الخاصة، أُقيمت في قاعة الشهيد خالد علوان ـ البريستول ندوة حول الكتاب الجديد للشاعر القومي عماد المنذر الذي يحمل عنوان «من نحن»، وهو عبارة عن قصائد نثرية أهداها المؤلف «إلى أرواح الشهداء ومعاناة الجرحى وأُسَرهما في النهضة... وإلى معلمي ومنير دربي أنطون سعاده».

وقّع المنذر كتابه للحضور قبل الندوة وبعدها، وحضر حشد من المثقفين وأصدقاء الشاعر، تقدمهم وفد مركزي من الحزب ضم رئيس المجلس الأعلى محمود عبد الخالق والوزير السابق علي قانصو والنائب مروان فارس وعميد الثقافة في الحزب الدكتور جورج جريج والعميدان نيه روحانا وسبع منصور ونائب رئيس المكتب السياسي الدكتور كمال النابلسي، وبعض المسؤولين المركزيين والمندوب السياسي للجبل الشمالي نجيب خنيصر ورئيس لجنة تاريخ الحزب لبيب ناصيف ومنفّذ عام الضاحية الشرقية أنطون يزبك، كما حضر وفد من التيار الوطني الحرّ ومهتمون.

استهلّت الندوة بتقديم من رئيسة المؤسسة نهلا رياشي للمناسبة الثقافية، تلاها الشاعر المنذر قارئاً مقتطفات من مجموعته الجديدة، فكلمة عضو القيادة المركزية للحزب الدكتور ربيع الدبس. وممّا جاء في مداخلته:

«تحيّة إلى مؤسسة الرعاية، وهنا رعاية ذي حاجة خاصة، وتحية إلى رفيقنا الشاعر عماد المنذر على مجموعته الجديدة «من نحن» المعبّرة بحد ذاتها بدءاً من عنوانها عن هويتنا، وذلك انطلاقاً من سؤال سعاده الشهير: من نحن؟ ومن ثم تأكيد الإجابة بأننا سوريون. وفي هذا السياق تَحْسُنُ الإشارة إلى أن هوية حزبنا هي الهوية القومية الاجتماعية، لا العَلمانية التي ليست بهوية. وفكرة العلمنة بالأساس ليست من أدبيات النهضة بل هي من الدخيل وادعاء ما ليس دقيقاً.

فالإنسان لدينا ليس كائناً مادياً أسكره الإلحاد. إنّه كائن جسماني يرقى إلى عقل، ويسمو بالقلب. صحيح أننا نقول بالصراع الفكري، لكن الصراع هنا لا يعني الاصطراع والاحتراب كما أساء فهمنا بعضهم... إنه يعني في صراع البقاء والتقدم انتصار المشروع الأكفأ والقيم الأفضل للنهوض بالحياة العامة والخاصة. علماً أن الصراع الفكري ليس المنتهى. إنه يعني في بُعد من أبعاده تأمين البناء النفسي والشروط الضرورية لاستتباب الاتجاه الجديد في الحياة، بكلّ تجلياته الإنسانية المجتمعية على مستوى السياسة والاقتصاد والأمن والثقافة والعلوم والفنون.

من هذه الشرفة المنهجية نطلّ على الأدب شعره ونثره. ولعلّ واحداً من أجمل التعريفات هو أن الشعر في مرتفعاته يمثل روح الأمّة. وقد عبّر سعاده العظيم عن ذلك بالدعوة إلى الأدب المنارة ونبذ الأدب المرآة. فماذا يعني ذلك؟ يعني أن القضية العليا هي بوصلتنا، وأن الأمّة ونهضتها هما ملعب الرؤى لدى ذوي المواهب الخلاّقة. نحن لا ننظر إلى عقولنا كما إلى مرآة عاكسة بل إلى منارة مشعة. نحن ننظر فقط إلى ما يخدم المصالح القومية الكبرى. لذلك اعتبر سعاده أن النهضة ليست فقط خروجاً من البلبلة إلى الوضوح ومن الشك إلى اليقين، إذْ جزم بأن معنى النهضة يتضمن تأسيس فكرة الأمّة، أي إزاحة الأفكار المكوّنة للعصبيات الابتدائية الأولية المتخلفة.

هكذا تتلازم عوامل الثقافة والحداثة والإبداع بالوجدان العام الحيّ. فالحداثة التي هي موقف قبل أي شيء آخر، من التقليد السائد، هي حداثة لأجل قضية أكبر من حجم طارحيها. فلا حداثة أصلاً بلا إبداع هادف، تماماً كما أن لا نص آسراً بلا موقف آسر، ولا شاعر كبيراً بلا متْقف كبير ينبض فيه. وفي تكثيف توصيفي نقول إن الشعراء الكبار هم أولئك الذين استجمعوا طاقة زمنهم وتجاوزوها. يقول الشاعر علي أحمد سعيد (أدونيس)، الذي يُعتبر منظّر الحداثة الأول في العالم العربي وهو الذي نما في تيارها المتفجّر من ينبوع النهضة: «عندما أقرأ نصاً عظيماً أشعر أنه ينتصر عليّ. آه ما أجمل وما أَوْقعَ هذه الهزيمة».

ذلك أن الشعر، عاميّه وفصيحه، ينبثق من بصيرة ثقافية، والبصيرة منشئة رؤيا هي أصل الإضافة الحضارية في الشعر، الذي يرتقي في تألقاته إلى أن يكون رؤية فلسفية للحياة وحقائقها، وغيرُ ذلك رصف كلامي وصناعة لفظية رثة... هكذا يمكننا القطع بأن النص الحيّ المتحرّك ينمو بالفوسفور الذي فيه. وهكذا يمكننا تشبيه القصيدة بالطفلة، مع إدراك عميق بأنّها الطفلة الوحيدة التي تعيش في رضاع دائم لا يعرف الفطام. لذلك قال فلوبير: الفن أسمى من الحياة. هكذا فقط يتاح لفرس الشعر أن تصهل في الميدان وتستوطن مساحتها في طفرة النشر الرخيص... هكذا يمكننا أن نتبادل النار مع الأدباء المنارات المعمّدين باللهب، لهب الكلمة المجنّحة التي تعلو بالأديب الرؤيوي من المبتذلات إلى الشواهق.

أما عمادنا المنذر، الذي سمعنا جميعاً عيّنات من نتاجه، فعسى أن يستبدل إنذاره، الملازم له في الإسم، إلى بشرى قريبة بإصدار جديد.

أنطون سعاده فكرة لا تموت وحضور لا يغيب

■ **الياس عشّي**

لم يعرف العالم العربي وضعاً أسوأ ممّا هو عليه اليوم ، فالعصبيّة القبليّة تعود إلى الواجهة، والتعصّب المذهبي في الذروة من الازدهار، والتشرذم يوحي بأنّ سايكس – بيكو أخرى تلوح في الأفق، والجهل يزحف كالجراد، وثقافة القتل على الهويّة أفقدتنا الأرض كما يقول أنطون سعاده الذي نحتفل اليوم بعيد ميلاده الرابع عشر بعد المئة .

عندما ولد سعاده (1904) كانت المذابح الطائفيّة التي جرت في لبنان، وامتدّت إلى الشام عام 1860، أهمّ حدث أمني وسياسيّ خطط له الغرب لرسم المراحل القادمة للخريطة السورية رغم مرور نصف قرن على وقوع تلك الحوادث.

ممّا لا شكّ فيه أن أنطون سعاده الذي نشأ ونما في ظلّ والده خليل المفكّر والكاتب والثائر قد سمع بتفاصيل ما جرى، وتركت تلك التفاصيل ندوباً في ذاكرته لم تندمل أبداً. بل وصلت تلك الجروح إلى الذروة مع مشانق جمال باشا السفّاح، ووعد بلفور، واتّفاقية سايكس – بيكو، والاحتلال الغربي للبلاد، وسلخ لواء الإسكندرون عن سورية، والإعلان عن قيام الدولة اليهوديّة، وكلّها نماذج حسّيّة تثبت الممارسات غير الأخلاقية والمشينة للدول العظمى التي ظهرت منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين.

في تلك السنوات المئة تعرّفنا إلى الكواكبي، والرصافي، والبساتنة، واليازجيين ، وقرأنا لمحمّد عبدو، وأحمد فارس الشدياق، وخليل سعاده، وجبران خليل جبران، ومي زياده، وميخائيل نعيمة، وقاسم أمين، وغيرهم من العمالقة الذين ساهموا في إنهاء عصر التقليد، والخروج من حالة الاستنقاع .

في تلك السنوات برز أنطون سعاده، فكان المفكّر والسياسي والصحافيّ والعقائدي الذي آمن بعقيدة تساوي وجوده، وقبل أن ينهي العقد الثالث من عمره أعلن عن تأسيسه للحزب السوري القومي الاجتماعي.

في ذكرى ميلاد أنطون سعاده أتحدّى أن يكون واحد من حكّام العالم العربي ، وأخصّ حكّام كيانات الأمة السوريّة ، قد قرأ كتاباً واحداً لأنطون سعاده.

لو فعلوا لما اغتالوه ، ولما حاولوا تشويه مبادئه .

لو فعلوا لأخذوا حذرهم من معاهدة سايكس – بيكو ثانية وثالثة تُعدّ لعالم عربيّ غارق في الغيبيّات.

لو فعلوا لما وصلت الوهابيّة إلى عقر دارهم، ولما نام اليهود في مخادعهم، ولا صارت فلسطين دجاجة من بيضها الثمين يأكلون كما يقول نزار قباني.

لو فعلوا لما كان لهذا الربيع ذي الهواء الأصفر أن يقيم في ديارنا، وأن يدمّر حضارتنا، وأن يعيدنا إلى العصر الحجري .

أنطون سعاده فكرة لا تموت، وحضور لا يغيب، وذهاب نحو مستقبل مشرق ودافئ وحميم، فهل كثير عليه أن نحتفل اليوم بذكرى ميلاده وهو الذي رسم للأمّة معالم حياة أخرى تشمخ بوقفات العزّ؟

ميلاد فكرٍ ونهضة

■ **أندره كرم**

مئةُ آذارٍ تفتّحت فكراً وعقيدةً وشموخاً وبطولةً، وأرست قواعدَ أمةٍ ستعيش لألف عام...

الأول من آذار ذكرى ميلاد المعرفة في المشرق التائه في غياهب الذلّ والانحطاط وفي دهاليز الطائفية والعنصرية والجهل...

المعرفة قوّة ستغيّر وجه التاريخ...

سأقولها بصوت يجلجل فوق بيروت ودمشق وبغداد والأردن وفلسطين وقبرص:

ميلادك، ميلاد الحقيقة الساطعة، أن لا كرامة من دون سورية الطبيعية كوطنٍ نهائيٍّ ولا عنفوان من دون الأمة السورية الحاضنة تاريخنا وجغرافيتنا وحضارتنا.

«لا يخشينّ أحدٌ في لبنان قولنا لتحي سورية لأن لبنان هو في ذرى سورية». هكذا تكلّم الزعيم.

قال لي أحدهم: لا يمكن لكائن حيٍّ مثل سعاده أن يعطي في عشرين سنة فحسب ما أعطاه من غزارة فكر ومن قواعد اجتماع وسياسية، إلا إذا كان قد تقمّص عبر العصور من فيلسوف الى فيلسوف ليصل الى هذا الكمال والصفاء في الذهن والمعرفة، فقلت له: صدقت.

يا زعيمي، آمنت بك معلّماً وهادياً للأمة والناس، وقائداً لقوّات التجدد الزاحفة بالمثل العليا الى النصر، ومخطّطاً وبانياً للمجتمع الإنساني الجديد.

لقد ملكت كياني، وإنّي لشاكرٌ لك لأنك وضعت على جبيني المرفوع كلمات خمس «إن الحياة وقفة عز فقط».

انا جنديٌّ من جنودك أعمل بزخم حبكَ وبهدي إيمانك لأجل سوريانا، مهد الحضارات والكرامات والبطولات...

مهما جرى ودها، سيرفّ لوانا وستستطع الزوبعة الحمراء فوق ربى صنين، وضفاف بردى، وسماء دجلة والفرات، وعلى ربوع فلسطين المغتصبة، وعلى ضفاف الأردن، وعلى تراب الكويت، وفي سماء الاسكندرون، اللواء السليب، وفوق قبرص أول خط دفاع عن سورية الطبيعية.

فليحي سعاده في كل لحظة وفي كلّ حين من إشراقة الشمس حتى غروبها، وليحي في ليلنا وفي أحلامنا فهو سيّد النهضة الآتية لا محالة... ولتحي قضيته العظمة إلا وهي الهلال السوري الخصيب ونجمته جزيرة قبرص.

ميلادك، أيها الزعيم الخالد هو ميلاد يقظة الأمة وميلاد مثلك العليا، ميلاد الحق والخير والجمال.

وبغير هذا الإيمان كيف تحي سورية؟ ويحي سعاده في هذه الأزمنة السوداء؟

شعبنا لم يلتق في وحدة العيش ولكننا سنلتقي في وحدة الحياة.

لقد تحقّقت المعجزة أن الأجيال التي لم تكن قد ولدت بعد، وأنا منها، قد اهتدت بنور كلماتك.

يا زعيمي يا قائدي يا شرايين قلبي يا قبلة نفسي، يا شرعي الأعلى، يا مقرأ كتابي، يا سمير أفكاري، يا مزيّن مكتبتي.

أنا من مياهك قطرة، فاضت بحاراً وأنهر.

أنا من ترابك ذرّة ارتقت عنفواناً واعتزازاً.

أنا من سمائك ومضة، أبرقت عزة وشموخاً.

صانع الرجال أنت في عصر قلّ فيه الرجال وكيف لا وأنت القائل:

«لسنا متنازلين عن مطلبنا السامي في الحياة حتى لو تراكمت جثثنا على الطريق سلماً للمجد».

وأخيراً، أشارك الأمينة أليسار أنطون سعاده، صرخة الأمل

لعينيك يا سورية / حُماتك

لا لن تبور الحماةُ / ستزرعنا

الأمهات / غنىً من طفولة /

تصحو الينابيع كالزنبق /

مواسم من قوةٍ ورجولة /

غداً نلتقي/ غداً في حصاد البطولة /

ويهتف كلٌّ مع المشرق / سلامٌ على سورية

تحي سورية... ويحي سعاده